

بعض معالم

مدرسة أهل السنة والجماعة

الحلقة الأولى-

أ. محمد يعيش (*)

العربية ومعرفة مناسبة التزول وأن القرآن العزيز لا يخرج عن ظاهره إلا بحجة وإلا بقي على ظاهره، ومراعاة الأخذ بالإجماع والعموم والخصوص، وإعطاء الأولوية للنص المنزل قرآنا كان أو سنة»^(١) هو الأصل في الاستدلال إذ أن تطبيق هذه الأصول هو المحك أو المعيار الذي يعرف به منهج أهل السنة في ردّ الحجة بالنص المنزل عند مواجهة قول المبتدعين.

ولقد استخدم العقل فعلا في أمور العقيدة من طرف أهل السنة والجماعة لكنهم لم يصلوا إلى حد إهمال النص تماما بحيث تصبح طريقتهم جدالا منطقيا

استقرأنا بدقة سبب الخلافات
الحاصلة بين العقول في قضايا
الاستدلال في جانبها الخبيري،
لخلصنا إلى حصرها في تفسير النصوص.
فما كان من النصوص محكما دلّ
على المراد دلالة قطعية، وما كان منه
متشابها، أنزل منزلة المحكم تارة باعتماد
ظاهره. أو أوّل بما يتماشى وقواعد اللغة
وأساليب البيان مع مراعاة المحكم
كمرجعية للمحكم تارة أخرى، أو سكت
عنه وأرجع أمر تفسيره إلى الشارع
الحكيم.

«وإن تفسير القرآن بالقرآن،
وتفسير القرآن بالحديث، و إتقان اللغة

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - الجزائر.

وفلسفيا خالصا لا يستند إلى النص بل يستقل عنه.

«وإن مذاهب المسلمين باستثناء المعتزلة متفقة على أن دليل العقل صاحب للسمع وبيان له تفسيراً وتأويلاً فهو محدد بالنص ولا يجوز له أن يناقضه»⁽²⁾.

وإن عقيدة أهل السنة والجماعة ليست عقيدة متفوقة على نفسها، وأن الانكفاء على الذات والبحث عن مثالب الغير بحجة صواب المنهج وتصحيح أخطاء الآخرين والظهور بمظهر الحق الذي لا يتمارى فيه أحد، والاهتمام بمسائل ليست من أصول الدين ومحاولة إلزام الآخرين بها ليست من عقيدة أهل السنة في شيء.

فعقيدة أهل السنة والجماعة، إنما يقصد بها تهذيب السلوك وتركيب النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى وأحسن مثال على ذلك ما ذكره سيد سابق رحمه الله بالقول:

«إن المعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة وتوقظ حواس الخير وتربي

ملكه المراقبة، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرفها، وتأنى بالمرء عن محقرات الأعمال وسفاسفها.

والمعرفة بالملائكة: تدعو إلى التشبه بهم، والتعاون معهم على الحق والخير، كما تدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن ولا يتصرف إلا لغاية كريمة.

والمعرفة بالكتب الإلهية: إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كما يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

والمعرفة بالرسول: إنما يقصد بها ترسُّم خطاهم والتخلق بأخلاقهم والتأسي بهم، باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس.

والمعرفة باليوم الآخر: هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

والمعرفة بالقدر: تزوّد المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب وتصغر دونها الأحداث الجسام»⁽³⁾.

ثم إن العدول عن عدم دراسة مذاهب ومقالات الآخرين والانطواء على الذات بحجة المحافظة على الدين، أو أن هذا هو الدين، هو أمر مردود، لم يكن عليه سلف الأمة ولا خلفها.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه: «فإنه لا بد لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها من معرفة المذاهب والمقالات»⁽⁴⁾. وهي دعوة لقراءة ما للغير من مؤلفات تخص الجوانب المتعلقة بالديانة.

ويستطرد الإمام بالقول: «ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات، من بين مقصر فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفه ومن بين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه، ومن بين تارك للتقصي في روايته لما يرويه من اختلاف المختلفين، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفه ما يظن أن الحجة تلزمهم به، وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل

القطناء المميزين»⁽⁵⁾. ولعمري هذا ما نلاحظه اليوم عند كثير من انتحل الاشتغال بالديانة، فمبلغ علمه أن يبحث للغير عن مترلق يحشر فيه، ويشنع به عليه.

«ولقد انكفأت ألسنة أهل السنة والجماعة عن القدح والظعن فيمن سبقهم من العلماء، بل كانوا يقدرونهم حق التقدير ويعترفون لهم بالفضل، فلا يقولون في علماء هذا الدين إلا أحسن المقال ولم يستجيزوا أن يطعنوا فيمن سبقهم بالإيمان كما لا يحكمون في عوام المسلمين إلا بظاهر إيمانهم، ولا يقولون بتكفير واحد منهم، إلا أن يتبين منه ما يوجب تكفيره»⁽⁶⁾.

وإن حصر أعلام الإسلام في عدد محدود من العلماء دون سواهم، واعتبار هؤلاء العلماء السبيل للتحصن من البدع والضلالات، وأن ما قرّره هو الصواب وما دونه باطل، هو في حقيقة الأمر تحجّي على هؤلاء العلماء وظلم لهم، فهم أنفسهم قد استفادوا مما قرّره أقرانهم وأسلافهم في كل المذاهب وفي شتى

العلوم. وجهل بالأمة الإسلامية وحضارتها، فالتاريخ يؤكد بأن:

«لا خصلة من الخصال، التي تعد في المفاخر لأهل الإسلام من المعارف والعلوم، وأنواع الاجتهادات إلا ولأهل السنة والجماعة في تزيينها القدح الأعلى والسهام الأوفر»⁽⁷⁾ إذ لم يقتصر علماء أهل السنة على علم من العلوم، بل شملوا العلوم جميعها بالزيادة فيها وضعاً وتمحيصاً وتصنيفاً.

فجملته الأئمة في النحو واللغة من أهل البصرة والكوفة في دولة الإسلام كانوا من أهل السنة والجماعة مثل أبي عمر ابن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش والزجاج والمبرد... والكسائي والفراء والأصمعي...

أما علم تفسير القرآن الكريم «فلم يكن من جميع من نسب إليه شيء من أصول تفسير القرآن الكريم من وقت الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا من تلوث بشيء من مذهب القدرية والخوارج والروافض مثل الخلفاء الراشدين الذين

تكلموا في التفسير ومثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. ومثل المشاهير من التابعين وأتباع التابعين الذين تكلموا في التفسير كسعيد بن جببر وعطاء وعكرمة ومكحول وعطية ومن كان بعدهم كالواقدي ومحمد بن إسحاق والسدي وغيرهم ممن كان بعدهم إلى أن انتهت النوبة إلى محمد بن جرير الطبري وأقرانه». وأما العلوم المتعلقة بأحاديث

المصطفى صلى الله عليه وسلم والتميز بين الصحيح والسقيم من الروايات ومعرفة السلف الصالح ولا يدخل في تلك الصنعة إلا أهل السنة والجماعة⁽⁸⁾ ومن أساطين هذا العلم نذكر الإمام النووي والإمام ابن حجر العسقلاني.

أما علوم الفقه فيختص بالتبحر فيه أصحاب الحديث وأصحاب الرأي⁽⁹⁾ وبمراجعة الأعلام والتصانيف في المذاهب الفقهية المعروفة عند المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة سنطلع على علماء أهل

السنة والجماعة الذين لا تتسع هذه الوريقات لذكرهم.

أما بالنسبة لعلم أصول الفقه بجميع طرقه المعروفة سواء كانت طريقة المتكلمين أو طرية الفقهاء أو طريقة الجمع بين الطريقتين فإنك لا تكاد تجد إلا علماء أهل السنة والجماعة بل تعدم علماء آخرين سواهم.

وأما علوم المغازي والسير والتواريخ والتفريق بين السقيم والمستقيم فليس لأهل البدعة من هو رأس في شيء من هذه العلوم فهي مختصة بأهل السنة والجماعة⁽¹⁰⁾.

أما علم التصوف والإشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة، وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي من مشايخهم قريبا من ألف، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ولم يوجد من حملتهم قط من ينتسب إلى البدع⁽¹¹⁾.

وقد تفرد أهل السنة والجماعة بأكثر من ألف تصنيف في أصول الدين، منها ما هو مبسوط يكثر علمه ومنها ما هو لطيف يصغر حجمه في أعصار مختلفة من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا في نصرة الدين والرد على الملحدين والكشف عن أسرار بدع المبتدعين⁽¹²⁾.

مثل القاضي أبي بكر الباقلاني والإمام أبي إسحاق الإسفراييني والأستاذ أبي بكر ابن فورك والإمام عبد القاهر البغدادي وإمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي والإمام أبي بكر بن العربي والإمام فخر الدين الرازي وغيرهم كثير.

وعليه فإن إفراغ محتوى التراث العقدي لأهل السنة والجماعة من الجدل الكلامي، ومحاولة إلصاق جملة من التهم بهذا الجدل والتمسك بصلف هذا المعطى الخاطئ والدفاع عنه والدعوة إليه يجعل عقل المسلم سجين عقله ومحيطه. ذلك لأن علم الكلام في حقيقته «محاولة لفهم وحدة العلم الموحي والعلم الكوني، وتفهم الـكون المجهول بالكون

المعروف»⁽¹³⁾. ولأن علم الكلام ليس ماضياً ميتاً يجب طرحه كما يدعي البعض، بل هو المادة التي يصنع بها الإنسان نفسه ويبنى مستقبله. إن من واجبنا اليوم في مواجهة تحديات الحضارة الغربية بما تحمله من تطور علمي وتكنولوجي رهيب، ومن ثقافة سخرت لها وسائل إعلام سيطرت على العالم، فغزت العقول والنفوس وشككت المسلمين في قدرتهم على النهوض بعقيدتهم الإسلامية أن نقوم: «بصياغة نظرية علمية قائمة على أسس

قرآنية وأعني نظرية الأسلوب الاستدلالي»⁽¹⁴⁾ وهذه النظرية يمكن أن نستقيها من تراث علماء أهل السنة والجماعة ومن اجتهادات علمائها العدول حتى تتمكن من بناء حضارة مبنية على أسس من القيم والمثل العليا والمبادئ السامية. يقول الفيلسوف الأمريكي "جون ديوي": إن الحضارة التي تسمح للعلم بتعطيل القيم المتعارف عليها ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة... تدمر نفسها بنفسها". [...] يتبع.

الهوامش

- (1) د/فوقية حسين محاضرة بعنوان منهج المسلمين في علم الظلام مقدمة إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي سبتمبر ١٩٨٩ جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة ص 10.
- (2) د/رفيق العجم، الأصول الإسلامية، منهجها وأبعادها. دار العلم للملايين بيروت ط/1 سنة 1983. ص. 142.
- (3) سيد سابق، العقائد الإسلامية. دار الكتاب العربي بيروت. ص. 9-10.
- (4) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين. ج 1 تحقيق/محمد محي الدين عبد الحميد دار الحديث، بيروت ط/٢، سنة 1985. ص. 33.
- (5) نفس المرجع السابق/ ص 33.

- (6) أبو المظفر الإسفرايني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة. تحقيق: كمال يوسف حوت. عالم الكتب، بيروت. ط/1؛ سنة 1983. ص. 196.
- (7) نفس المصدر، ص. 187.
- (8) نفسه. ص. 191.
- (9) نفسه. ص. 192.
- (10) نفسه.
- (11) نفسه.
- (12) نفسه.
- (13) وحيد الدين خان/ الإسلام والعصر الحديث؛ دار النفائس، بيروت. ط/3؛ سنة 1986. ص. 76.
- (14) نفس المرجع، ص. 78.